شذرات لاهوتية

الكوارث الطبيعية في الكتاب المقدس

كيف نكوّن فهمًا لاهوتيًّا لها؟

ش. د. إيهاب الخراط

يزخر الكتاب المقدس بذكر الكوارث الطبيعية، بدايةً من طوفان نوح –الذي غطى المسكونة المعروفة– إلى الأوبئة والجراد، إلى زلازل وأرضٍ تنشق وتبلع المتمردين، إلى نار الله النازلة من السماء على سدوم وعمورة (وهل هي ثورة بركان أم عاصفة كبريتية أم شيء آخر؟) والجوع الذي حدث في زمن إبراهيم، ثم في زمن يعقوب، وتلاه في فترة قصيرة الجفاف الذي ضرب أرض مصر وأنقذته منه نبوءة يوسف من خلال تفسير الحلم، وبطبيعة الحال ضربات مصر العشر... ولا تقف الكوارث عند ما حدث لأولاد أيوب الذين سقطت عليهم نار الله من السماء (بركان؟) والآخرين الذين هبت الريح من عبر القفر فأسقطت سقف البيت عليهم فماتوا، ثم المرض العضال الذي أصابه هو نفسه، ومرورًا بتعامل الرب يسوع مع المولود أعمى وتفسيره له، وتأمله في البرج الذي سقط على الذين كانوا يتقدمون بذبيحةٍ، ثم إنذاره بوقوع مخاوف وزلازل وأوبئة قبل نهاية الزمن. ولا ننسى في هذا السرد –غير الوافي– اللعنات على الشعب إذا لم يلتزم بالعهد عند دخوله الأرض، ومنها كوارث طبيعية لا تخطئها العين، الضربات ذاتها التي ضُربت بها مصر، ولعنات طبيعية أخرى عند مخالفة عهد دخول الأرض، وواضح فيها أنها كوارث آتية من عند الله مباشرة. أما الكوارث التي حلت بأبناء أيوب فهي من الشيطان مباشرةً أيضًا كما أوضح الكتاب. والضربة التي ضرب بها الرب الشعب بعد إحصاء داود كانت من الرب بنص العهد القديم. لكن كوارث كثيرة لا يصرح الكتاب بأن وراءها قوةً فائقةً للطبيعة، ثم نرى العواصف

التي ضربت سفينة بولس ونجاة ركابها بمشورة الرسول. وفي السفر الختامي للكتاب المقدس نرى كوارث طبيعية ضخمة من صب الجمرات بواسطة ملائكة الله، ونرى أيضًا الشيطان وقد نزل وبه غضب عظيم لسكان الأرض يسبب أيضًا كوارث أخرى.

ونبدأ بطرح رؤى كتابية لعلها مفعمة بالأسئلة أكثر من الإجابات.

- سؤال الكوارث كعقاب من الله يتبعه مباشرةً سؤال هل كل الكوارث الطبيعية هي عقاب من الله؟ أم كوارث بعينها في زمنٍ بعينه في سياق بعينه ويعلن عنها نبيٌّ بعينه في وقتها؟
- هل هناك كوارث من الشيطان؟ وهل هذه "ضد مشيئة الله" أم بسماح منه؟ هل يستخدمها الله لخير المدعوين حسب قصده؟ أم هي أصلًا في خطته وما الشيطان إلا منفِّذ لهذه الخطة عن طاعةٍ أم عن غير قصدٍ في تمرد الشيطان الدائم على خطط الله ومقاصده؟
- هل هناك كوارث ليس مصدرها الله أو الشيطان؟ وما معنى وجودنا في عالم ساقط نتعرض فيه "لخليقة تئن وتتمخض" وقد "أُخضعت" هذه الخليقة أي الطبيعة نفسها "للبُطل" أي للعبث وغياب المعنى؟
- ما معنى "الحماية الإلهية" للمؤمنين في كل هذه الكوارث الطبيعية؟ هل المؤمنون محصنون دون غيرهم ضد الكوارث الطبيعية، فينجون من الزلازل والبراكين، ولا تصيبهم الأمراض ولا الشدائد التي تصيب عامة الناس؟ أم "يُشفَون" منها جميعًا فلا تستمر ولا تستقر عصا الشرير على نصيب الأبرار؟

ولعلنا في هذه الشذرات نفحص بعض الإجابات –التي نراها مقنعةً لنا– ولكننا قطعًا حتى في هذه الإجابات نوقن أننا سنثير مزيدًا من الأسئلة للقارئ النشط روحيًّا المستعد "لفحص الكتب" بكل يقظةٍ وانفتاح.

الطوفان ونار سدوم وعمورة

لا يمكن لمنصف ألا يلاحظ أن لغة الإصحاحات الأحد عشر الأولى من سفر التكوين مختلفة عن لغة ما يعقبها من أسفار موسى الخمسة. فلا نستطيع أن نفهم مثلًا الأعمار الطويلة بشكلٍ لا تستوعبه عقولنا اليوم؛ مئات السنوات. وإن كنت أذكر في أول محاضرةٍ لمادة الصحة العامة في كلية الطب أن الأستاذ ذكر أنه لولا الملوثات والميكروبات وما يتعرض له الإنسان من أخطار الصحة العامة لكان متوسط عمره سبعمائة عام!

لكن هذه المنطقة من العالم شهدت مرارًا وتكرارًا فيضاناتٍ كارثيةً ضخمةً مُسجَّلةً في تاريخ أمم ما بين النهرين ومصر والآراميين وغيرهم. ولعل طوفان نوح قد غمر "الأرض" بمعنى الأرض المعمورة بالسكان كما يعرفها قُرَّاء الأسفار الخمسة في عصرهم، وفق عددٍ كبير من المفسرين كاليكوت ولانج... وغيرهما (Ellicott's Commentary, Lange's Commentory). في كل الأحوال ارتبط الطوفان بعبارات لا شك فيها بقرار أن يمحو الرب عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقه مع بهائم ودبابات وطيور السماء (تكوين 6: 7).

يتسق هذا الإعلان تمامًا مع إعلانٍ آخر عن غضب الله على سدوم وعمورة؛ إذ "أَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ" (تكوين 19: 24) وهل نتصور أن النار والكبريت ما هما إلا نشاط بركاني؟ هذا ما يشير إليه إليكوت أيضًا. بينما بارنز Barnes يقترح نشاطًا بركانيًّا أو زلزالًا يؤدي إلى أن يقذف البحر الميت موادًا ملحيةً وأسفلتيةً مُحرِقة، أو عاصفة رهيبة مصحوبة ببرق وصواعق ومطر مُحمَّل بكبريت. ولا يختلف تفسير جايمسون وفوست وبراون JFB المحافظ عن هذين الاحتمالين أيضًا.

نار الله من السماء على الغلمان وأبناء أيوب وريح شديدة

من جهةٍ أخرى، لا يخفي الكتاب مصدر كارثتَيْن طبيعيَّتَيْن حدثتا لغلمان أيوب وأبنائه فقضت على حياتهم، الشيطان الذي أطلق الله حريته كان وراء هاتين الكارثتين (أيوب 1: 12). لكن يقول الكتاب إن "نار الله" سقطت من السماء فأحرقت الغنم والغلمان (أيوب 1: 16). وهنا يرى إليكوت أن نار الله هي صاعقةٌ على الأغلب. ويوافقة بنسون Benson في هذا مؤكدًا أنه رغم أن هذه الصاعقة أو العاصفة الرعدية الضخمة المحملة بالصواعق– موصوفة أنها "نار الله" فهذا ليس إلا وصف لضخامتها. فمصدرها ليس "إلهيًّا" بل "رئيس سلطان الهواء" الشيطان نفسه، في حين يفسرها جاميسون وفوست وبراون بأنها رياحٌ حارقةٌ، ومثلها يحدث بتواترٍ في الجزيرة العربية موضع أحداث أيوب. جيل Gill –من جهةٍ أخرى– يقول إن الخادم الذي حمل الأنباء الكارثية هو الذي وصف هذه النار بأنها "نار الله" بينما الوصف غير دقيق؛ لأن الشيطان –من رأي جيل– هو الذي ضلل الخادم ليقول هذا.

هذه النار/ الكارثة الطبيعية، أيًّا كانت هويتها –عاصفة رعدية، رياح محرقة، نشاط بركان... أو أي من هذا– أحرقت الغنم والخدم (الغلمان) لكن كارثةً طبيعيةً أخرى "رياح شديدة" هي التي "جَاءَتْ مِنْ عَبْرِ الْقَفْرِ وَصَدَمَتْ زَوَايَا الْبَيْتِ الأَرْبَعَ، فَسَقَطَ عَلَى الْغِلْمَانِ" (أيُّوب 1: 19) هنا أولاد أيوب وبناته يموتون من جراء العاصفة الضخمة. لم تتنوع آراء المفسرين إلا قليلًا هنا، فالريح الشديدة هذه هي إما زوبعةٌ أو إعصارٌ أو عاصفة، وهذه ليست مترادفات بل ظواهر طبيعية مختلفة تعبِّر عن قوة رياحٍ مدمِّرة. في كل الأحوال، مصدر هذه الكوارث ليس الله، بل الشيطان.

ابنة ابراهيم قد ربطها الشيطان

في لوقا 13: 11–17 نرى المرأة التي ظلت منحنيةً لا تقدر "أن تنتصب البتة"؛ لأن بها "روح ضعف". وتتنوع آراء المفسرين؛ من قائلٍ إنه كان بها "نوع طفيف" من سكنى الأرواح الشريرة JFB، إلى قائلٍ إن روح الضعف

هذا الذي تبدَّى في اضطرابٍ مزمنٍ في العمود الفقري هو تعبيرٌ عن سلطان "رئيس هذا العالم" الشيطان القائم حتى مجيء المسيح، ومن ثم نجدهم ينسبون كل الأمراض والأوبئة والإعاقات والكوارث الطبيعية أيضًا إلى وجود هذا العالم الآن "في الشرير"، لكن الله يستخدم حتى هذه الكوارث لخير الذين يحبون الله، المدعوين حسب قصده– زمنيًّا أو أبديًّا.

ظواهر طبيعية تعلن مجد الله وليست كوارث

الكارثة الطبيعية وفق تعريفها هي ما يؤدي إلى أذًى شديدٍ على البشر أو الكائنات الحية أو الثروات التي يعيش عليها البشر أو الكائنات. إنما حدوث زلازل لا يصاب فيها أيٌّ مما ذكرنا، لا يمكن أن نسميه "كارثة" وكذا البراكين أو العواصف والأعاصير، بل إن بعض الانبثاقات البركانية في المحيطات مثلًا أدت إلى ظهور جزرٍ غنيةٍ بالموارد الطبيعية؛ كالأرض شديدة الخصوبة التي تسمح بنشوء الحياة. وبعض العلماء يعتقدون أن نيازك صغيرة ضربت الأرض في زمنٍ بعيد فأسهمت بما أضافت من موارد كيميائية في ظهور بيئة طبيعية تسمح بنشوء الحياة.

ونرى ريحًا شديدةً هبت مثلًا على السفينة السكندرية التي تحمل بولس الرسول، والمُعذَّبة من عواصف أخرى، فألقت بها على بر الأمان فنجى كل من في السفينة (أعمال الرسل 27: 14–44).

- في كل الأحوال يمتلئ الكتاب أيضًا بإعلان الله عن مجده؛ إذ يسمع المؤمنون صوته في الزلزلة وفي العاصف وفي مظاهر عنيفة مفعمة بالقوة– وقد لا تؤذي أحدًا.

"... هُوَ جَالِسٌ عَلَى الْكَرُوبِيمِ. تَتَزَلْزَلُ الأَرْضُ" (مزمور 99: 1).

"أَيَّتُهَا الأَرْضُ تَزَلْزَلِي مِنْ قُدَّامِ الرَّبِّ..." (مزمور 114: 7).

"مِنْ قِبَلِ رَبِّ الْجُنُودِ تُفْتَقَدُ بِرَعْدٍ وَزَلْزَلَةٍ وَصَوْتٍ عَظِيمٍ، بِزَوْبَعَةٍ وَعَاصِفٍ وَلَهِيبِ نَارٍ آكِلَةٍ" (إشعياء 29: 6).

- والعواصف أيضًا سمع فيها المؤمنون صوت الرب:

"فَأَجَابَ الرَّبُّ أَيُّوبَ مِنَ الْعَاصِفَة وَقَالَ..." (أيُّوب 38: 1).

"يَأْتِي إِلهُنَا وَلاَ يَصْمُتُ. نَارٌ قُدَّامَهُ تَأْكُلُ، وَحَوْلَهُ عَاصِفٌ جِدًّا" (مزمور 50: 3).

"... الرَّبُّ فِي الزَّوْبَعَةِ، وَفِي الْعَاصِفِ طَرِيقُهُ، وَالسَّحَابُ غُبَارُ رِجْلَيْهِ" (ناحوم 1: 3).

- وعلامة على شدة رضاه عن إيليا أنه أصعده إليه "في العاصفة إلى السماء" (1ملوك 2: 1).

"سَبِّحِي الرَّبَّ مِنَ الأَرْضِ... النَّارُ وَالْبَرَدُ، الثَّلْجُ وَالضَّبَابُ، الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ الصَّانِعَةُ كَلِمَتَهُ" (مزمور 148: 7، 8).

وفي هذا يرى بول تيليش –اللاهوتي الألماني/الأمريكي الكبير– أن الكون مُفعَمٌ بقوى جبارة: زلازل وبراكين وعواصف، بل وكواكب تُولَد وتُدمَّر، ونجوم جبارة تختفي في دمارٍ رهيبٍ، ومجرات بأكملها تصطدم بمجرات أخرى أو تتلاشى في ثقوب سوداء. يرى تيليش أننا لسنا في قصة أطفال مخملية آمنة ونهايتها لطيفة وليس فيها أي عنف. بل في عالم يتشكل بظواهر جبارة تعبر عن إله جبار قدير مهوب، وليس بالضرورة غاضبًا، بل هو هكذا عظيم مُرهب.

كوارث طبيعية لا يُنسب لها أي سبب خارق

يذكر عاموس بشكل عابر زلزلة فارقة حدثت في زمن عزيا النبي ولا يكترث بأن ينسبها لا للرب ولا الشيطان. (عاموس 1: 1) والزلزلة ذاتها يذكرها زكريا (زكريا 14: 5).

وحتى نبوات الرب يسوع عن المجاعات والأوبئة والزلازل في أماكن (متى 24: 7) لا يحدد لنا يسوع مصدرًا لها؛ شيطاني أم إلهي أم هي مجردة من أي مصدر فائق للطبيعة. صحيحٌ أنها أتت في سياق أعمال واضح أن مصدرها شرير –حروب بين أمم وأنبياء كذبة ومضلين وإخوة يسلمون المؤمنين ويخونونهم– لكن لا ينسبها يسوع صراحةً لأي قوى فائقة للطبيعة. ولوقا يضيف لسرد ما قال يسوع: "وَتَكُونُ مَخَاوِفُ وَعَلاَمَاتٌ عَظِيمَةٌ مِنَ السَّمَاءِ" (لوقا 21: 11).

وفي كل هذه الظواهر المخيفة والجبارة لا يخبرنا الكتاب بكونها إعلانًا لمجد الله ولا أنها تعبيرٌ عن غضب رئيس سلطان الهواء ولا أنها تعبيرٌ عن الغضب العادل لله.

بيان الكتاب المقدس عن الكوارث الطبيعية

يحق لنا إذا أن نحصي بيان الكتاب المقدس عن الظواهر الطبيعية المخوفة على أنها:

1- كوارث تعبر عن غضب الله.

2- كوارث تعبر عن أعمال الشيطان.

3- ظواهر غير كارثية تعبر عن مجد الله وأحيانًا حتى عن عنايته.

4- ولا واحد من المسببات عاليه.

ونرى أيضًا أن الرب يعلن أحيانًا للمؤمنين السبب الفائق للطبيعة وراء الكارثة الطبيعية وأحيانًا لا يعلن. لاح أن أيوب نفسه لم يعرف إطلاقًا عن هذا الحوار بين الله والشيطان ولا عن سماح الله. وكان يظن أن عليه أن يقبل من الله الخير كما يقبل الشر. وحتى في الإعلان الختامي له ولأصحابه لم يخبرهم الرب عما وراء ما حدث من كوارث رهيبة.

الحماية الإلهية في عالم ساقط

هل يمكننا أن نجزم أن آدم وحواء في جنة عدن كانا مُحصَّنين تمامًا من الكوارث الطبيعية؟ نعم كانا يأكلان من شجرة الحياة وكانا سيعيشان إلى الأبد. لكن هل كانا سيعيشان إلى الأبد في جنة أرضية؟ أما كانا سينتقلان إلى المدينة السماوية بعدها؟ لا نستطيع أن نجد إجابة نهائية عن هذه الأسئلة في سفر التكوين أو في أي ذكر في الكتاب لآدم وحواء قبل السقوط.

وبينما يذخر العهد القديم بوعود عن الحماية الإلهية من الوباء الخطر ومن افتراس الوحوش مثلًا في مزمور 91. ونجد مزمور الراعي يذكر بالامتنان أن الرب يربضه في مراعٍ خضر وفي مياه الراحة إلا أنه أيضًا لا يعفيه من "وادي ظل الموت" بل يشمله بمعيته هناك. وفي فتح ختوم سفر الرؤيا السبعة لا يخبرنا الرائي أن المؤمنين سيجدون القمح والشعير في المحنة التي أطلقها الجالس على الفرس الأسود (رؤيا 6: 6) ولا يخبرنا أنهم معفيون من مقتل "ربع سكان الأرض" بالسيف والجوع والموت ووحوش الأرض (رؤيا 6: 7، 8).

بينما في موضع لاحق وقبل سلسلة كوارث أخرى يطلب ملاك آخر عدم الإضرار بالأرض والبحر والأشجار حتى "نختم عبيد إلهنا على جباههم" (رؤيا 7: 3) بما يوحي أنهم سيكونون محميين من هذه الويلات.

وعودة للحياة في الزمن الحاضر نقرأ في قائمة الأمور التي "لا تفصلنا عن محبة المسيح" فنجدها تشتمل على الأقل على كارثة طبيعية واحدة: الجوع، في حين أن "الخطر" و"العري" يحتملان تفسيرات أخرى (رومية 8: 35). لكن الرسول لا يقدم بالروح وعودًا بحمايتنا من "الجوع". يقدم فقط في الإصحاح ذاته وعدًا أن "كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ" (رومية 8: 28)، ووعدًا بأن "آلاَمَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لاَ تُقَاسُ بِالْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِينَا" (رومية 8: 18).

وفي هذا السياق يُطرح سؤال: كيف ننظر إلى تقدم الإنسانية في الوقاية من الكوارث الطبيعية: القضاء على أوبئة كانت رهيبة مثل الجدري وشلل الأطفال والسيطرة على التيفويد والكوليرا، والتنبؤ بالزلازل والعواصف والأعاصير والفيضانات والانبثاقات البركانية، بما يعني إنقاذ عشرات الملايين كانوا يهلكون أو يتضررون من جراء مفاجأة هذه الكوارث لهم؟ فنقرأ إجابةً صريحةً أن "كُلُّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الأَنْوَارِ، الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ" (يعقوب 1: 17)، والتقدم العلمي الذي يخدم البشر هو عطية صالحة وموهبة نازلة من عند أبي الأنوار. لذا لا نعتقد أن البشرية تتدهور في كل مناحيها إلى فساد أفدح، بل نراها تتقدم علميًّا واجتماعيًّا وأخلاقيًّا؛ فمعدل العمر يزيد، وفيات الأطفال تقل، القدرة على التعامل مع الكوارث تتقدم.

ويقول الحكيم إن "... الرَّحْمَةُ وَالْحَقُّ فَيَهْدِيَانِ مُخْتَرِعِي الْخَيْرِ" (أمثال 14: 22) والوعد بهداية الرحمة والحق ليس لمخترعي الخير من المؤمنين. ولعله لا يتعلق بالخلاص الأبدي. إنما هو في السياق واضح الدلالة: المقصود الرحمة والحق يهديان المخترعين في طريق اختراع الخير.

نهاية الأمر كله: خليقة تئن وتتمخض

أعتقد أن هذه الفقرة تجمع التحليل النهائي للرؤية الكتابية للكوارث الطبيعية، وسواء كانت غضبًا من الله، عامًّا أو خاصًّا أو كانت من أعمال إبليس في عالم ساقط أو غير هذا:

الخليقة كل الخليقة أخضعت الآن "للبطل" أي للعبث أو الإحباط أو أشياء تحدث بلا معنى والخليقة أيضًا أُخضعت "لعبودية الفساد" لكنها تنتظر العتق من هذه "العبودية" إلى حرية مجد أولاد الله (رومية 8: 18–39). الكوارث الطبيعية هي أحد التعبيرات عن أنين الخليقة من جهة، وتقدم التعامل معها هو أحد التعبيرات عن تمخضها في تطلع لحرية مجد أولاد الله. والأنين والتمخض الآن هو مقدمة لازدياد المعرفة وازدياد غمر مجد الله للأرض، ليس فقط روحيًّا ولكن أيضًا في العلوم والاقتصاد والسياسة والثقافة والفنون، وأدوات فعالة في مواجهة الكوارث الطبيعية وقاية منها وإقلالًا من أثرها.

إذن لعل علينا أن نتريث كثيرًا في فهم ما وراء الكوارث الطبيعية من أسباب في العالم الروحي لكن علينا ألا نتمهل في السعي بالصلاة والفعل وبالعلم والعطاء والثقة بالرب في مواجهة والتصدي والوقاية من هذه الكوارث.